

دفاعا عن المستشرقين لا عن الاستشراق

بقلم /محمد
صاحب

1- المستشرقون و الفكر "التنويري" ؟

على الرغم من الكتابات الكثيرة التي ظهرت في موضوع الاستشراق والمسائل المرتبطة به، فإن قدرا كبيرا من مادته و منهجه، لم يمس مباشرة في تحليلات الكتاب العرب. و أخص بالذكر في هذا المقام، انتقال فكر التنوير ومنجزات عصر الأنوار المنهجية، الفكرية و الفلسفية إلى اهتمام المثقفين العرب الأوائل مع بداية القرن العشرين؛ سواء مع كتابات المستشرقين حول الثقافة العربية الإسلامية، أو دروسهم التي كانت تعطى فيما كان يعرف بمصر، على سبيل المثال، بالجامعة المسائية بجامعة الملك فؤاد الأول، (جامعة القاهرة حاليا)، و التي اتسمت في أغلبها، في تلك المناقشات و المحادثات وبعض الكتابات، بطابع خاص، لم يكن معروفا في السابق عند المثقفين العرب، حيث رسم حدودا بين ما هو قدسي وما هو إبداعي؛ و بين ما هو قديم و ما هو حديث... و لم تكن مصر و جامعتها الفتية آنذاك المزار الوحيد لهؤلاء المستشرقين أو "المنهجين" الأوروبيين القادمين من باريس و برلين بل شهدت معاهد العلم و الثقافة بدمشق و بيروت و أماكن أخرى عديدة زيارات و دروس استشرافية أيضا؛ التقى بل تصادم خلالها عالمان : أحدهما تقليدي و الآخر حديثي؛ الأول منبهر بما حققه الثاني من إنجازات علمية و تقنية وفكرية، و أما الثاني فينظر إلى الأول على أنه حقل صالح للتجربة و الاستكشاف.

لقد عبر كثير من الباحثين و الدارسين العرب و غير العرب عن هذه النظرة المتبادلة بين الطرفين و أطلقوا عليها مفاهيم و مصطلحات من بينها "الاستعلاء" الغربي و "التقليد الأعمى" العربي و ألفاظ و عبارات أخرى رقيقة مثل "الاستشراق" و "الاستغراب"... و أخذت هذه الاصطلاحات في الانتشار و الذيوع حتى أصبحت تشير إلى حالة ثقافية و حضارية تحكم العلاقة بين مجتمعين مختلفين من حيث الرؤيا و من حيث البنى الفكرية و النفسية و الاجتماعية، وهو الأمر الذي شجع الطرفين المتناقضين في استكشاف بعضهما البعض. غير أن هذا الاستكشاف تم ولا يزال ضمن أهداف متباينة أيضا.

الواقع أن هذا الاستكشاف و هذه القراءة لم تكن وليدة بداية القرن العشرين بقدر ما كانت وليدة القرن الماضي، بل هناك من المؤشرات التي تؤكد تواجد هذه الظاهرة قبل ذلك بكثير، لكنها أضحت بارزة الملامح في عصر "محمد علي" بمصر على وجه الخصوص. و يتبين ذلك جليا فيما كتبه "رفاعة رافع الطهطاوي" (1801-1873) في مؤلفه الشهير "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" حيث يمثل نموذج المثقف العربي الذي عاش على وقع ما كان يعج به فضاء مدينة باريس وقاهرة "محمد علي" معا...

و لعل نصوص طه حسين و محمد مندور و غيرهما، سواء تلك التي كتبت على شكل آراء أو انطباعات في صفحات الجرائد و المجلات، أو تلك التي اتخذت شكل دراسات منهجية، خير مثال على ميلاد عصر جديد في الثقافة العربية ساهم المستشرقون من أمثال كارلو نلينو في تعميده.

لننظر إلى نص طه حسين الذي يقول فيه:

"كانت دروس الأدب التي كنت أسمعها في الجامعة حين يقبل المساء تدفعني إلى حياة الطلاب الذين يختلفون إلى الجامعات في روما و باريس و غيرهما من المدن الجامعية الأوروبية الكبرى، فكنت أعيش مع الماضي البعيد وجه النهار، و أعيش مع الحاضر الأوروبي الحديث آخر النهار، و تشغلني خطوب الحياة المصرية الراكدة الممضة بين ذينك الوقتين، و كان الرفاق يجدون من هذه الحياة مثل ما كنت أجد، و يسعدون حين يعودون إلى الماضي، و يسعدون حين يدفعون إلى الحياة الغربية التي كانوا يتطلعون إليها"⁽¹⁾.

إن هذا النص (و نصوص أخرى) يحيلنا إلى فضائين متمايزين، شبه متناقضين سواء من حيث العبق أو من حيث المطارحات، لكن ، كان لهما الدور الحاسم في إعادة تأسيس منظور المثقفين العرب خلال تلك الفترة الزمنية. هذا المنظور الذي لا يزال لحد الآن، و رغم مرور عشرات السنين، يدفع إلى الخوض في مسائل الثقافة والإبداع دفعا.

و لعل ما يميز هذين الفضائين، هو تجاور مدينتين مختلفتين، من حيث البناء والفضاء - مدينة بغداد أو القاهرة - في زمن كاد أن ينقطع و بين مدينة باريس الحديثة، "العقلانية"، التي أثمرت مثقفا من القرن التاسع عشر هو رفاة رافع الطهطاوي، الذي ألف كتابا من أجل ذلك هو تخلص الإبريز.

الواقع أن العقلانية التي تحدث عنها جيل الرواد من هذا القرن ما كان لها أن تصطبغ بلون خاص، لولا تلك الدروس المسائية، التي كان المستشرقون إحدى صورها الكبرى... فمن خلالها، دخل ديكارت، و بيكون، والمنهج العقلاي بصفة عامة إلى قلوب و أذهان مستمعي الدروس المسائية بجامعة فؤاد الأول.

ومن خلالها أيضا بدأ يرتسم أمام أعين الحاضرين في مدرجات هذه الجامعة ،أن العقلانية التي تتميز بها الثقافة الأوروبية ، وعصر الأنوار خلال القرن الثامن عشر، هي الخيط الرفيع التي لأبد للمثقف العربي الإمساك به إن أراد الخروج إلى رحاب الفكر الحر، والمنهج العلمي "المبني على الشك و الريية فيما خلفه علماءنا وأدباؤنا الأوائل" وما إلى ذلك من أمور كانت بالنسبة لطله حسين و رفاقه بمثابة الفتح المبين... والأمر الذي لاشك فيه، أن محاولة المستشرقين توريد الفكر العقلاني نحو الشرق والثقافة العربية ، من خلال الطروحات "المنهجية" ،المبنية على الشك الديكارتي، هي في حقيقة الأمر، محاولة إعطاء الأمودج الذي يمكن أن يتخذ من أجل مسأيرة أوروبا، في ثورتها على القدم، وما إلى ذلك من قضايا تدور في فلكتها..

إنه لا يخفى على أحد الآن، أن " ديكارت" الذي هو جزء مهم من عصر الأنوار، وزملاؤه من أمثال فرنسيس بيكون (القرن 17)، هم الحد الفاصل بين حقبتين متميزتين بل و متناقضتين في الثقافة الأوروبية ذاتها...

فمن خلالهم، تم التفريق بين حقبة دوغماتية، قائمة على استلهاهم منجزات القدماء والدوران في فلكتها، بالاعتماد على "أريسطو". وحقبة أخرى، تجريبية-عقلانية، تضع المسلمات أمام طاولة النقاش، مهما كانت دينة، أو دنيوية... فالعقل،والعقلانية بصفة عامة، قائمة على الانطلاق من فكرة أن العلم لم ينجز بعد، وأن الشك هو السلاح الوحيد للوصول إلى الحقيقة... فإذا، نحن أمام، تجربة أوروبية ذاتية، استمرت قرونا من الزمن، بدأت مع عصر النهضة "بفلورنسيا الإيطالية" مرورا بغاليليو غليلي⁽²⁾ في القرن السادس عشر، والتي أثمرت في نهاية

المطاف، -ضمن ثمارها - كتابين يلخصان التجربة الأوروبية "المنهجية و العلمية"،
هما "خطاب في المنهج" لديكارت وأصل الأنواع الحية لداروين...
هذه التجربة، التي أراد لها : كارلو نلينو و زملاؤه، أن تكون ضمن برنامجهم
التدريسي في بداية القرن بالقاهرة. والتي تمثل، بالنسبة لأوروبا، القطيعة المعرفية
والإبستمولوجية مع كل ما هو قديم.. بل انه، من الوجهة هذه، يجب النظر إلى
القديم من الحاضر ومنجزاته الفكرية والمنهجية.

لقد وعي طه حسين الدرس جيدا ، وتكونت لديه فكرة واضحة عن ذلك،
وأين يريد نلينو وزملائه من أمثال كازانوف وغولدتسيهر أن يذهبوا بتلامذتهم...
وأدرك أكثر ، أن المستشرقين، والاستشراق عموما ، هو نتاج هذا الفكر الأوروبي
"العقلاني" الذي يمكن توظيف منهجيته لسبر أغوار الثقافة والتراث العربيين ، على
الرغم من معرفته المسبقة أن منهج الشك، الذي يسير وفقه، كان من خصوصيات
الاستشراق الفرنسي و قد ينتهي إلى "ما تأباه القومية، وتنفر منه الأهواء السياسية،
وتكرهه العاطفة الدينية."

ولا يتبين هذا الإدراك ، عند طه حسين فحسب، بل عند معظم الذين
عاصروا تلك " المحاضرات المسائية" لكنها عند طه حسين، تبدو أكثر إقناعا وأقل
تسترا، في كتابيه "في الشعر الجاهلي" و" مستقبل الثقافة في مصر" اللذين كانا فاتحة
لقرن جديد، بل ولعهد جديد، في الدراسة الأكاديمية والعلمية بوجه عام..(3).

ولعل الحصان الذي امتطاه طه حسين من أجل ذلك، كان " المنهج
الديكارتّي" الذي يقول عنه: " أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي
استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء في العصر الحديث، والناس جميعا

يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خال الذهن مما قيل فيه خلوا تاما.. (4)

من هنا، يبدو لنا واضحا، أن هناك تداخلا عجيبا بين الفكر التنويري و فكر المستشرقين، أو على الأقل، في جانب مهم منه، هذا الجانب الذي بشر به جيل الرواد من هذا القرن. ووضع له الأسس والمنطلقات المنهجية بل وذهب إلى أبعد من ذلك، حينما أشرك المستشرقين في وضع البرامج والمقررات الدراسية... (وهو موضوع قائم بذاته يحتاج إلى وقفة مطولة، لإظهار الجوانب الخفية فيه وعلاقته بالاستشراق عموما...)

2 - الاستشراق استراتيجيته وحدوده:

لا يمكن رسم حدود الاستشراق، ومنظور المستشرقين الفكري والثقافي (والحضاري أيضا). لأن ذلك يتطلب معرفة واسعة ومتشعبة بذلك، واستحضارا دقيقا لتاريخيته واستراتيجياته ومنهجيته. وهذا الأمر في حد ذاته، يتطلب بحثا طويلا وعريضا، لكن، يكفي فقط، القول في هذا المقام، أن مرحلة الاستكشاف الجغرافي، التي عرفت أوروبا ابتداء من القرن الخامس عشر، (والاكتشافات الجغرافية، من أراضي جديدة، وبشرية: من أمم وشعوب)، أثمرت في نهاية المطاف، ومع اتساع مدارك أوروبا ذاتها، بعد ترجمة التراث اليوناني ومنجزات العرب العلمية والفكرية، اكتشافا بالغ الأهمية، تمثل في تعرف أوروبا المثقفة على حضارات وثقافات، تفوق كلما تصوره الأوروبي عن الثقافة والحضارة إلى ذلك اليوم.

ومن هذا الخضم الجديد، في هذه الحركة الجديدة أيضا، بدأت ميادين العلوم تتوسع وتتفرع لتشمل تلك الثقافات واللغات، من خلال المتابعة والدرس والاكتشاف.

فظهرت علوم عديدة، في هذا الشأن، يمكن ذكر ما له علاقة بالعلوم الإنسانية فحسب، لإدراك حجم الانبهار الذي طبع هذه المرحلة من مراحل التطور الفكري الأوروبي، ومن هذه العلوم : الأثنوبولوجيا، والأثنولوجيا، اللتين حاول الأوروبيون من خلالهما الخروج من الحيز الأوروبي الضيق ، للإنبجاز في الحيز العالمي الشامل.. ويكفي في هذا الصدد، ذكر أسماء لامعة في هذا الميدان، التاريخي المقارن...، للتدليل على ذلك، ومنهما : شغل ، وشلاشير ، في اللسانيات على سبيل المثال لا الحصر.. واللذين اتخذا من اللغة السنسكريتية (لغة الهند المقدسة)، وسيلة لدراسة اللغات الأوروبية وتطورها.. وأسفرت جهودهما، معرفة علمية-لسانية، ساهمت في تطور الألسنية المعاصرة ..⁽⁵⁾ ومن هذا المثال البسيط، يمكن القول بأن الاستشراق، من حيث المبدأ هو تمييز أنطولوجي، ابستمولوجي بين الشرق والغرب. وعلى أساسه حاول الدارسون العرب التقريب بين المسافة الفاصلة بينهما بامتطاء مصطلح "الأصالة والمعاصرة" حيناً ومصطلح "الحداثة" حيناً آخر..

وبسبب هذا التمييز، تشكل لدى وعي المثقف العربي، والأوروبي أيضاً، إحساس- حقيقة ، مفاده أن الشرق يتميز عن الغرب من حيث الجوهر، سواء تعلق الأمر بقضايا الإنسان أو العالم (الموضوع) أو العلاقة بينهما.. ومن أجل استخراج عناصر هذا التمييز، أو الفصل بين العالمين، لا نرجع إلى مقولات المستشرقين (وهي كثيرة في هذا الصدد) بل إلى مفكرين وأدباء غرب حاولوا من خلال كتاباتهم (مثلهم في ذلك مثل بعض الأوروبيين من أمثال: شاتوبريان **Chateaubriand** الفرنسي، و غوته الألماني **Goethe**) تحديد الاستشراق باعتباره العين الأوروبية في العلاقة بين الغرب من جهة والشرق من جهة أخرى. هذا الشرق الذي لا ينحصر في الثقافة العربية بجميع فروعها، قديمها وجديدها وإشكالياتها، آمالها وآلامها، بل

يتعداه إلى ما هو أعمق وأشمل. فالغربي ينظر إلى هذا الشرق، باعتباره الفردوس المفقود حيننا، و الماضي البعيد لأوروبا الحديثة حيننا آخر، أما الشرقي فينظر نحو الغرب، على أنه الفردوس الحاضر حيننا، والمسيطر، المتعالي المتجبر حيننا آخر.. فعوض أن يكون اللقاء بينهما، انسجاما وتكاملا كما دعا إلى ذلك بعض المثقفين العرب، (الحديثين و المعاصرين) ، جاء اللقاء تصادمية، تنافريا، بين شرق روحي وغرب مادي ، و بين شرق ذاتي سحري، وغرب موضوعي مادي.

فهذا رفاة الطهطاوي ، يرسم ملامح العلاقة بين الشرق و الغرب ، بلون يتميز بالانبهار كما في قوله "اعلم أن البارزين يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل و دقة الفهم، و غوص ذهنهم في العويصات ، وليسوا مثل النصارى القبضة في أنهم يميلون بالطبيعة إلى الجهل و الغفلة ، و ليسوا أسراء التقليد أبدا ... " ثم يذهب إلى تصوير الشوارع النظيفة و الأبنية الفخمة و السير المنظم في الشوارع والأزقة و ما إلى ذلك من أمور خطفت ليه وعقله ، ...⁽⁶⁾.

أما أدونيس، و إن كان لا يخرج بأحكام عامة، من خلال معادلة الشرق والغرب، كما عمد إلى ذلك الطهطاوي خلال القرن التاسع عشر ، إلا أنه ولظروف تاريخية و معرفية ، خاصة - ينظر إلى الغرب على أنه الابن العاق ، المتمرد الذي لا يستحق شفقة أو رحمة .

" ليس في الغرب شيء لم يأخذه عن الشرق ، الدين ، الفلسفة ، الشعر ... الفن بعامة (...). فخصوصية الغرب هي التقنية لا الإبداع لذلك يمكن القول إن الغرب حضاريا هو ابن الشرق ، لكنه " تقنيا " ، لقيط ، انحراف ، استغلال، هيمنة ، استعمار ، إنه في دلالة أخرى ، التمرد على الأب ، و هو الآن لم يعد يكتفي بمجرد التمرد ، إنما يريد قتل الأب ..."⁽⁷⁾ وهكذا ، من النظرة السطحية عند

الطهطاوي، بحكم الاحتكاك الأول بالغرب ، بعد غيبوبة و قطيعة معرفية دامت قرونا ، إلى المثقف الذي يعي جيدا مفهوم الغرب؛ إلى مبدع ثالث هو ألفرد فرج الذي يتجه اتجاها آخر، هو بمثابة الوجه الآخر، للاستشراق ، فهما واستيعابا، حين يقول بمساررة، "إن العالم يتألف من مدينة أوروبية و ريف آسيوي - إفريقي - أمريكي لاتيني، فات زمان كانت فيه القيمة الوحيدة لهذا العالم الثالث هي أنه مخزن للمواد الخام و للفولكلور و للآثار ، إن مصر ليست هي الهرم القديم ، و لا إفريقيا هي مجرد الأقنعة المخيفة والإيقاعات الزنجية التي لا تنتمي للفن المعتمد عالميا إلا من خلال الأوركسترا الأوروبية"⁽⁸⁾

إذن ، ما الذي يدفع شاعرا كأدونيس أو مسرحيا كألفريد فرج مثلا، المعروفين بأبحاثهما - وخاصة بمنهجية أدونيس المعتمدة جزئيا على جانب مهم من طروحات المستشرقين ، إلى القول بما قالوا، لولا إحساسهما الدفين بأن المنظور الذي يحكم العلاقة بين الشرق و الغرب ، أو بين الثقافة العربية و المنهج الغربي، غير مؤسس فعليا على تلك المثل التي أفرزتها أوربا عصر الأنوار، و التي حاول المستشرقون الأخذ بطرف منها، و جعله من مستلزمات البحث و التقصي عن فكر و ثقافة و حياة العرب و المسلمين، و هو الأمر الذي اتخذ في النهاية شكل وصاية فكرية و علمية لا يزال المثقف العربي بل و الإنسان العربي عامة ، و لحد الآن ، يحس بها و يتلمسها في الخطاب الأوروبي المعاصر، الفكري منه و الإعلامي ..

لقد عبر إدوارد سعيد عن هذه الإشكالية - علاقة الاستشراق كمنظور فكري و سياسي و منهجي، بالشرق عموما ، و الثقافة العربية الإسلامية خصوصا- بأنه (أي الاستشراق)، رغم تحقيقه لإنجازات كثيرة ، فإنه لم يكن

بمقدوره أبدا أن ينقح نفسه و يعيد النظر في طبيعته ، وذلك كله يجعل من كرومر ، وبلفور ، من حيث هما مراقبان للشرق أو إداريان له ، أمرا حتميا .. (9).

3- الاستشراق مصدر من مصادر المعلومات عن الثقافة العربية الإسلامية :

لقد تناول العديد من الباحثين العرب مسألة الاستشراق في كتاباتهم، حللوا وناقشوا، ما للمستشرقين و ما عليهم، وتعددت الكتابات و الردود ، و الخطاب واحد ، و هو محاولة فهم " الظاهرة " الاستشراقية، و إنتاجها القائم على الأنتروبولوجيا الثقافية ، كاتجاه في الكتابة و منهج في الدراسة .

و من أمثلة هذه الدراسات يمكن ذكر على سبيل المثال لا الحصر ، ما يلي ، لفهم درجة استعصاء الأمر على كتاب و مثقفي العربية .

-الاستشراق و المستشرقون ، ما لهم و ما عليهم ، لمصطفى السباعي .

- الاستشراق بين الموضوعية و الانفعالية - لقاسم السامرائي .

-مناهج المستشرقين ، من منشورات المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم .

و ما إلى ذلك من كتابات ، و دراسات ، كان آخرها و أهمها ، ما نشره إدوارد سعيد بالولايات المتحدة الأمريكية ، و الذي أثار كتابه "الاستشراق" ضجة هائلة ، في الجامعات الأمريكية والأوروبية و خارجها ، باعتباره هجوما عنيفا على الاستشراق ، و فهم الغرب العنصري للشرق . و من الاعتراضات "الضيقة" التي أثيرت عليه ، أنه لا يذكر فلانا أو فلانا من المستشرقين الذين وقفوا من العرب موقفا أفضل ، أو المدرسة الفلانية و ما إلى ذلك ... (10) الواقع أن هذه الردود لم تكن صادرة عن مثقفين غرب متعاطفين مع الاستشراق ، (و إن حصل ذلك فيما بعد) بل صدرت من جامعيين و كتاب أمريكيين . استطاع الطرح الاستشراقي ،

ومنظوره ، و كذلك ثقافة الغرب ورؤاها ، أن تحجب حقائق عن الشرق و ثقافته و قضاياها، بل و تكرر الوصاية التي يتحدث عنها إدوارد سعيد.

لقد سبق أن تعرض المرحوم عمر فروخ ، لهجمة عنيفة ، من طرف الكتاب العرب أنفسهم حينما قام بنقده للاستشراق في كتبه و دراساته و ترجماته ، مثل "المستشرقون و طبقاتهم" الذي صدر بعد وفاته ، و هو الذي كان تلميذا للمستشرقين الألمان ، من أمثال يوليوس روسكا ، و شيدر و آخرين .. و اهتم بأنه كان سيئ الظن بالنسبة للمستشرقين مهاجما للاستشراق، حاملا عليه خالطا بينه وبين التبشير و الاستعمار .. (11)

لقد انطلق عمر فروخ ، مثله في ذلك مثل إدوارد سعيد ، في تصديده لدراسات و أبحاث المستشرقين من تجربة واحتكاك كبيرين بالمستشرقين ، و من إدراك ثاقب ، لخطورة منهج الاستشراق في خلطه بين ما هو علمي و ما هو سياسي و بين ما هو ديني وفكري . غير أنه يستثني في ذلك بعض الذين أنصفوا العرب و المسلمين ، و كانوا استثناء في حركة الاستشراق ، و يذكر عددا منهم ، من أمثال جورج سارتن صاحب كتاب "مقدمة في تاريخ العلم" وفيليب حتى وغيرهما.. غير أنه و مع التأكيد على سلبية الاستشراق ، لا يرمي المنشقة ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك، حينما يدعو كتاب العربية و الإسلام ، إلى الرد الحضاري على افتراءات المستشرقين ، بدل الشتم و القذف . لأنه مدرك لأهمية الاستشراق في حياتنا الثقافية و الفكرية و السياسية ، و أنه من المصادر الثقافية و العلمية عن تاريخ العرب و المسلمين. (12) ليس فقط للغرب و شعوبه، بل أيضا للعرب و مثقفيه ؛ إذ لا يكاد يخلو بحث من البحوث العربية و الإسلامية ، من رأي أو إشارة تاريخية ، مصدرها كتاب أو مقالة مستشرق..

و إذا كان عمر فروخ ، قد أنهم بعضهم على غير محملة كما قال البعض ،
ونعتهم بالتحامل و التبعية، دون التعرف الجلي لخلفيات ذلك، الفكرية و المنهجية ،
فإن ذلك لا ينطبق على إدوارد سعيد ، الذي فهم أن وقوف بعض المستشرقين
موقف المسيء إلى العرب و المسلمين ، لم يكن إلا انطلاقاً من منهجهم العلمي
والتاريخي ، الذي طبق بصرامة على النصوص المسيحية ذاتها. و الحل لهذا الإشكال
في نظره هو تصحيح الأسس التي انطلق منها الاستشراق و المستشرقون في دراساتهم
و مقارباتهم . و هنا يلتقي إدوارد سعيد مع ما طرحه (louis Gardet) عندما أقر
بالهفوات و المؤاخذات التي وقع فيها الاستشراق ، فعهد إلى تصحيح المقولات
والمفاهيم التي ألصقت بتراث المسلمين الديني و الفكري و الاجتماعي في كتابه
الموسوم "رجالاً لإسلام" " les hommes de l'islam " حيث يقول - على
سبيل المثال - و هو يستعرض أهم المغالطات التي ارتكبتها بعض المستشرقين - :
" و يمكن بالمناسبة التذكير بتلك الأحكام غير المعقولة بل بتلك الافتراءات التي
صدرت عن "أرنست رينان" حول الإسلام و رموزه و لكنها على الرغم من ذلك
إلا أنها ساهمت و لو بشكل جزئي في التعريف بالإسلام "حضارة" و وضعه ضمن
خارطة الحضارات الإنسانية الكبرى " ... (13)

و من أجل البدء في عملية التصحيح ، يقترح "لويس غاردتي" الرجوع إلى
مصدر الفهم السيئ الذي لا يمكن أن يكون إلا في تلك المرحلة التاريخية التي
ساهمت بشكل معاكس في تكريس الصورة المشوهة عن كل ما هو غير أوروبي ..
و الذي زادته العصور الحديثة بتعاليتها و نظراتها الفوقية الشيء الكثير.. (14)

و في ختام هذه المساهمة المتواضعة ، يجب القول بأن هناك من يجانب الحقيقة،
ذلك الذي يتصور أن ما يكتبه المستشرقون، موجه نحو القارئ العربي بقصد أو

بغير قصد . بل إن الأصح القول ، إنه موجه بالدرجة الأولى إلى المثقف الغربي (الأوروبي و الأمريكي) .. بمعنى أنهم يقدمون صورة عن العرب و الإسلام، مهما كانت درجة صحتها أو خطئها ، تبعاً لمنظورهم الخاص للعالم و للأشياء . وأن ما قام و يقوم به الكتاب و الدارسون العرب ، في محاولاتهم لفهم محيطهم الثقافي و الاجتماعي ، إنما ينطلق في منهجيته و إجراءاته من هذا الفهم السيئ الذي تحدث عنه "لويس غاردي" ، و الذي كرسته بعض الأقلام ، في تحليلاتها بدعوى أنها تنطلق في تصوراتها من البعد الحدائثي للأشياء... و هذا هو الخلط بعينه ..

ومهما يكن من أمر ، فإن ما قدمه المستشرقون ، فرادى و جماعات ، و ليس الاستشراق في كليته ، قد خدم الثقافة و المثقفين العرب ، و التراث الإسلامي بشكل عام .. و المقام هنا، لا يتسع لذكر ما للمستشرقين من فضل في ذلك .. وهو كثير . لكن يكفي الإشارة و حسب إلى ذلك الكم الهائل من المخطوطات التي حققت و نشرت من طرف أقطاب الاستشراق الألماني و الهولندي..و إن كان ذلك، لا يمثل إلا نسبة يسيرة من العدد المهول من المخطوطات العربية و الإسلامية...

الهوامش

- 1- طه حسين ، نقد و إصلاح . ط2 . بيروت : دار العلم للملايين 1960 . ص.164 .
- 2 - غاليليو غاليلي هو أحد أقطاب الفيزياء و الفلك إبان عصر النهضة بإيطاليا حيث أحدث آراءه و آراء زميله كوبرنيكس ثورة في الفكر الأوروبي . و كانت آراءهما من الدعائم الأساسية التي بني عليها علم أوروبا إبان عصر النوار خلال القرن الثامن عشر .
- 3 - أنظر في ذلك البحث الذي قدمه د. محسن جاسم الموسوي في كتابه "الاستشراق في الفكر العربي" طبع: الهيئة المصرية العامة للكتاب . 1997 . ص.90-96 .
- 4 - طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، ط9 . القاهرة : دار المعارف . 1968 . ص.64 .
- 5 - R.H.ROBINS; breve histoire de la linguistique: De Platon a CHOMSKY . - 5 PARIS ED du seuil 1976 p141
- 6 - رفاعة رافع الطهطاوي ، تخلص الابريز في تلخيص باريز . القاهرة : مطبعة مصطفى الحلبي مصر ، د.ت ص271
- 7 - أدونيس (علي أحمد سعيد) ، فاتحة لنهايات القرن ، بيروت : دار العودة 1980 . ص.330.

- 8 - ألفريد فرج ، تأملات في الثقافة ، بغداد : وزارة الثقافة و الإعلام 1984 . ص 55 .
- 9 - إدوارد سعيد ، الاستشراق : المعرفة والسلطة الإنشاء . تر . كمال أبو ديب . بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية . 1981 . ص 121 .
- 10 - راجع في ذلك مقدمة كمال أبو ديب لكتاب الاستشراق لإدوارد سعيد .
- 11 - ميشال حجا ، "الاستشراق" . بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة . عدد 4 فبراير 1990 . ص 81 .
- 12 - لقد قام المستشرقون بدور كان من المفروض أن يقوم على عائق الكتاب العرب و المسلمين (تحقيق ، ترجمة ونشر للتراث العربي الإسلامي) و تقديمه إلى العالم في أحسن صورة ممكنة . و عوض أن نحاكم ، حري بنا التفكير في استراتيجية أخرى منطلقة من القيام بدور حضاري يكشف عما هو مخزون من مخطوطات في متاحف العالم .
- 13- LOUIS GARDET / LES HOMMES DE L'ISLAM , PARIS HACHETTE ;
1984 . P 316 – 317 .
- 14- I B I D , P 324 .